محمد عابد الجابري

مواقف

إضاءات وشهادات

كيف نتعامل مع التراث؟

الصورة التي تقدمها اللغة العربية لأهلها عن العالم!

... ولأن العقلانية ضرورة!

من ملفات الذاكرة السياسية

15

فعلت ذلك كله بدون تردد!

مواقف

إضاءات وشهادات

محمد عابد الجابري

مجموعة كتب صغيرة "من ملفات الذاكرة"

تصدر عند بداية الشهر.

الكتاب الخامس عشر

الطبعة الأولى: مايو 2003

فهرس

تقديم 5
- مدخل: بداية تأسيسية والباقي بدون تدخين.....7
- علاقتي بابن خلدون.. موقفنا من التراث.....39
- كيف نتعامل مع التراث 47
- الصورة التي تقدمها اللغة العربية لأهلها عن العالم!..57
- ... ولأن العقلانية ضرورة!... 73

3- الصورة التي تقدمها اللغة العربية لأهلها عن العالم..؟

حوار مع جريدة المحرر المغربية (المحرر الثقافي) أجراه العياشي أبو الشتاء، ونشر بتاريخ 24 مايو 1981، وكان ذاك في أعقاب ندوة "البحث الليساني والسيميائي" التي عقدت بكلية الآداب بالرباط بتاريخ 7-9 مايو 1981، وقد ساهمنا فيها ببحث بعنوان "خصوصية العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية" أدرجناه في كتابنا "التراث والحداثة". فالحوار يقع إذن على هامش هذا البحث.

1- مسألة تطوير النحو العربي.
2- الأعرابي هو صانع العالم العربي.
3- علاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي.
4- اللغة العربية تفرض عليك أن تفهم قبل أن تقرأ.

1- مسألة تطوير النحو العربي

س- نبدأ بهذا السؤال: كيف يمكن تطوير النحو العربي داخل الثقافة العربية؟

ج- الكلام عن النحو العربي، سواء تعلق الأمر بنشأته، أو بالتفكير في تطويره الخ، يفرض علينا النظر إلى الثقافة العربية ككل. فلم ينشأ النحو العربي في سياق التطور العام للغة العربية والأدب العربي، كما هو الشأن بالنسبة للغات الأخرى، حيث غالبا ما يأتي تقنين اللغة في آخر المطاف. تقنين اللغة العربية قد شكل البداية بالنسبة لنشأة الثقافة العربية الإسلامية العالمة. ومعنى هذا أن النحو العربي كان بمثابة المنطلق المؤسس للفكر العربي ككل: ذلك أنه إذا نظرنا إلى اللغة العربية، وإلى ما يمكن أن نسميه بالثقافة العربية قبل عصر التدوين، أي قبل تدوين النحو العربي، قبل تقنين وتقعيد اللغة العربية، إذا نظرنا إلى هذه الثقافة قبل نشوء علم النحو، فإننا سنجدها ثقافة غير مبوبة، بمعنى آخر لا يمكن الحديث عنها كثقافة منظومية، أو كثقافة لها مفاصل معينة. كل ما نملك عنها، وكل ما كان يوجد آنذاك، هو جملة أشعار، جملة "آداب"، وبعبارة أخرى لقد كانت في جملتها ثقافة شفوية. والثقافة الشفوية ثقافة غير منظمة، اللهم إذا أردنا نحن أن نكتشف بنيتها الداخلية وهذا شيء آخر.

الثقافة العربية إنما بدأ تنظيمها وإدخالها في قوالب فكرية، أعني صياغتها كمنظومة فكرية عامة، في عصر التدوين. وقد لعب النحو العربي دورا كبيرا في هذا المجال. ليس فقط لأن النحو العربي جعل اللغة العربية تنتقل من لغة كلام إلى لغة كتابة، بل

أيضا لأن النحو العربي فتح الطريق للثقافة العربية ككل لتتحول من ثقافة شفوية إلى ثقافة مكتوبة. أي من مرحلة اللاعلم إلى مرحلة العلم. ذلك أن التفكير العلمي في الثقافة العربية إنما انطلق أساسا من العمل النحوي. كلنا نعرف أن المحاولات العلمية الأولى كانت في النحو أساسا. من هذه الزاوية نقول عنه إنه المؤسس للثقافة العربية، ليس بوصفه مقننا للغة وحسب، بل بوصفه أيضا مقننا للفكر. لقد كانت القوالب التي وضع فيها النحو العربي قوالب منطقية أو ذات صبغة منطقية.

من هذا نرى أنه إذا أردنا دراسة النحو العربي دراسة علمية فيجب أن لا نغفل هذه الحقيقة، وهي أن النحو العربي لم يأت نتيجة تطور اللغة وتطور الفكر كما هو الشأن في اللغات الأخرى بل كان هو المؤسس لهذا التطور، كان هو المنطلق. وإذن فتطوير النحو العربي سواء على الصعيد البيداغوجي (أعني إذا أردنا أن نطور اللغة العربية وأن نجعلها مواكبة أكثر ونضفي نوعا من السهولة على قواعدها)، أو إذا أردنا أن نطوره علميا حتى يكون أكثر اتساقا وأكثر انسجاما مع روح اللغة العربية نفسها، أقول: تطوير النحو العربي في كلتا الحالتين لا يمكن أن يتم بمعزل عن هذا "الكل" الذي يشكل الثقافة العربية، لا يمكن أن يكون إلا داخل الثقافة العربية. إن أية قاعدة نحوية مهما كانت إذا طورت، أو إذا حذفت أو إذا عدلت، لا بد أن ينعكس أثر هذا التعديل أو هذا التطوير على الفقه، على التفسير، على الأدب، على النقد الأدبي، على مجمل الثقافة العربية. ذلك أن النحو —كما قلنا– ليس شيئا معزولا في الثقافة العربية، بل هو المؤسس، هو ذلك الخيط الرابط بين جملة عناصر الثقافة العربية. ففي علم أصول الفقه، مثلا، أبحاث لغوية

خاصة وهي تستند إلى قواعد النحو. فالنحو إذن مشارك في عملية استنباط الأحكام الشرعية، وهذا يصدق كذلك على التفسير والحديث، والأدب، والنقد الأدبي الخ.

من الناحية العملية، الدعوة إلى تطوير النحو العربي، أو إلى تغيير هذا النحو أو تبسيطه بشكل من الأشكال، داخل الثقافة العربية الراهنة، لا بد أن تثير ردود فعل سلبية من جانب الثقافة العربية ككل، أو من بعض ميادينها على الأقل. خذ مثلا الدعوات التي كانت تدعو في هذا القرن العشرين إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية أو إلى حذف نظرية العامل الخ. لقد واجهت هذه الدعوات ردود أفعال سلبية من طرف الفقهاء ومن طرف المفسرين، لماذا؟ لأن هناك بنية واحدة، يمكن أن نقول عنها إن النحو قد أسسها. وإذن لا يمكن تطوير النحو ما لم تكن العملية عملية شاملة تتناول النص العربي ككل بمعنى الفكر العربي ككل.

2- الأعرابي هو صانع العالم العربي

س- إذا كان النحو العربي يشكل بنية فكرية شاملة، فإن الفكرة التي طرحتها في ورقتك ("خصوصية العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية")، التي أبرزت فيها كون جمع اللغة العربية قد تم اعتمادا على "الأعراب"، قد قادتك إلى نتيجة مفادها أن "الأعرابي هو صانع العالم العربي"! نريد توضيحا!

ج- يجب التمييز بين مستويات في هذا الموضوع: هناك أولا الصورة الذهنية التي لدينا عن الأشياء، وهي تخضع في كثير من جوانبها للمادة اللغوية التي نتوفر عليها، وهذه المادة اللغوية المعجمية هي التي جمعت من الأعراب. وإذن فالنتيجة المنطقية،

وأيضا العملية، هي أن الصورة التي تقدمها اللغة العربية لأهلها ستكون مطبوعة بطابع حياة الأعرابي، لأن اللغة جمعت من بيئة الأعرابي ومحدودة بحدود هذه البيئة. وإذن فالصورة التي ستكون للإنسان العربي عن العالم ستكون مطبوعة بهذا الطابع. لنأخذ مثلا فصيلة السمك. نحن نعرف أننا لا نتوفر في اللغة العربية على رصيد لغوي كاف للتمييز بين أنواع الأسماك؛ بل كل شيء سمك، بخلاف الإسباني مثلا فهو يرى في الأسماك عالما متنوعا يزخر بالحياة. أما نحن فنرى شيئا واحدا! لماذا؟ لأن اللغة العربية جمعت من وسط واحد، من الجزيرة العربية، من البادية، حيث لا أسماك. فلو جمعت اللغة العربية من الجزيرة العربية ككل ومن الخليج بالخصوص حيث كان البحر وكان السمك، لكانت لدينا ثروة لغوية نستطيع بواسطتها أن نكون لأنفسنا صورة عن عالم الأسماك أكثر غنى من الصورة التي لدينا الآن. خذ عالم الأزهار والورود أيضا. فالأوروبي، عندما يدخل حديقة أزهار، يرى عالما متنوعا، كل زهرة لها اسمها، وبالتالي لها كيانها الذاتي الخاص، ولها خصوصيتها. أما نحن فإذا دخل أحدنا مثل هذه الحديقة، فهو لا يرى إلا أزهارا فقط، أعني شيئا واحدا فقط. هذا يذكرنا بالمثال الذي يذكره الأنثروبولوجيون، يقولون: إننا إذا ذهبنا عند الإسكيمو فنحن لا نرى إلا الثلج، في حين أن الثلج —عند الإسكيمو– أنواع متعددة متفاضلة، فيه الرقيق والغليظ الخ، وكل نوع من الثلج له كيان خاص. إذن فعالم الثلج عالم غنـي بالنسبة للإسكيمو. أما بالنسبة لنا نحن فكل شيء في عالم الثلج ثلج. وهذا خلاف الجمل مثلا: فالجمل بالنسبة للعربي أنواع: هذه ابنة سنة، هذه ابنة لبون الخ، عالَم من الجمال، قاموس خاص بالجمل. لكن

بالنسبة للإسكيمو فالجمل، إن وجد، فهو بجميع فصائله مجرد جمل. هناك مفهوم واحد، صورة ذهنية واحدة، للجمل.

إذا انطلقنا من مثل هذه المعطيات فلا بد أن نعي أن اللغة العربية فعلا تحدد أو تقنن أو تؤطر تصورنا للعالم مثلما تفعل أية لغة أخرى. فاللغة على العموم تحدد وتؤطر نظرة أهلها إلى العالم. وبما أن لغتنا جمعت من الأعراب أي من مجتمع بدوي معين فالصورة التي ستقدمها لنا —شئنا أم أبينا– هي صورة العالم البدوي أساسا. ومن هنا الطابع الحسي للعقل العربي، لأن العالم البدوي عالم حسي وبالتالي فالفكر العربي في عمقه حسي. نحن الذين نشتغل بالفلسفة نشعر بهذا، فاللغة لا تسعفنا بالكلمات الكافية للتعبير عن المفاهيم الفلسفية المجردة (مفهوم الوجود، الهوية الخ، عند اليونان مثلا).

هذا على مستوى الصورة أو الرؤية للعالم من خلال المادة اللغوية. هناك إلى جانب هذا تنظيم هذه اللغة، مفصلتها تصنيفها، "قولبتها" في قوالب ذهنية، وقد تم ذلك على يد النحاة. إذن هناك مستوى المادة اللغوية التي تشكل رؤيتنا للعالم أو إمكانية تصورنا للعالم كمادة لغوية كأسماء، ولكن هناك أيضا "مفصلة" العالم، قولبته في قوالب فكرية معينة وعلى أساس أنغام، هي أوزان نحوية، وعلى أساس معطيات معروفة الخ. هذا يتم أو تم داخل النحو.

هذا هو المستوى الثاني، هناك مستوى آخر هو مستوى الاستدلال والمحاكمة العقلية والبرهان. فبما أن الثقافة العربية، أساسا، هي ثقافة الشعر الجاهلي أو أسست على أساس الشعر الجاهلي (النقد الأدبي في عصر التدوين، في العصر العباسي وقبله،

كان نموذجه ومعاييره تؤخذ من الشعر الجاهلي وشعراء الجاهلية)، وبما أن القصيدة الجاهلية مبنية أساسا على التشبيه، والتشبيه استدلال أو قياس، فالعملية الذهنية التي تتحكم في الاستدلال العربي هي القياس، قياس جزء على جزء أي تشبيه.

إذن هناك ثلاث مستويات في علاقة اللغة العربية بالفكر العربي داخل الثقافة العربية: مستوى المادة اللغوية التي تحدد إلى حد كبير صورتنا عن العالم، ثم مستوى "مفصلة" العالم أو "قولبته" حسب قوالب معينة، وهذا قام به النحو الذي هو منطق العرب. وهناك الجانب الآخر الذي يتعلق بالتفكير وبآليات التفكير، بالاستدلال، بالحكم، وهذا أيضا لعب فيه الأدب القديم (الشعر أي التشبيه) دورا أساسيا فأصبح النحو والفقه والكلام وكل علم من العلوم العربية الإسلامية، يعتمد على القياس، قياس فرع على أصل أو الغائب على الشاهد، وهذا تشبيه أو في معنى التشبيه. وإذن فاللغة العربية، التي جمعت من الإعرابي، وقننها النحاة، وكرسها الشعراء والأدباء، تتحكم إلى حد بعيد في الصورة التي لأهلها عن العالم. ومن هنا جاز القول: "الأعرابي صانع العالم العربي"، فعليه كان الاعتماد في جمع اللغة وتقنينها و تكريس منطقها.

3- علاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي:

س- في مائدة "مجموعة الفكر واللغة"، من موائد الندوة، تقدمتم بمداخلة أثارت نقاشا امتد إلى موائد أخرى. كان يتعلق الأمر بعلاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي. نريد تنوير القراء بصدد هذا الموضوع؟

ج- بخصوص العلاقة بين النحو العربي ومنطق أرسطو، يجب القول إن هذه العلاقة لم تبحث لحد الآن إلا من زاوية واحدة وهي مدى تأثير المنطق الأرسطي في نشأة النحو العربي، وصياغة قواعد النحو العربي. هذا جانب لم أتطرق إليه ولم يكن موضوع اهتمامي. إن موضوع اهتمامي كان منطلقا أساسا من المناظرة الشهيرة التي جرت في العصر العباسي في سنة 326 هـ في مجلس الفضل بن الفرات وزير المقتدر، بين أبي سعيد السيرافي النحوي المشهور، وبين متى المنطقي. هذه المناظرة كانت عبارة عن مرافعة شديدة اللهجة، قام بها السيرافي ضد المنطق، وكانت حجته أن المنطق الأرسطي هو خاص باللغة اليونانية، وإذن فنقله إلى اللغة العربية هو كمن ينقل لغة إلى لغة أخرى "مقررة بين أهلها"، كما عبر هو نفسه. إذن فالسيرافي كان يعتبر المنطق اليوناني عبارة عن نحو للغة اليونانية، وكان يرى أن العرب لا حاجة لهم إلى منطق أرسطو، لأن النحو العربي يقوم مقامه. وإذن فالنحو العربي، سيكون بهذا الاعتبار هو منطق اللغة العربية، والمنطق الأرسطي سيكون نحو اللغة اليونانية. بطبيعة الحال في هذه المناظرة لا يقدم لنا السيرافي أمثلة توضح هذا التعارض. هناك بعض أمثلة قصد بها إفحام خصمه متى: مثلا عندما سأله عن الواو، والأحوال التي ترد فيها في اللغة العربية، وحينما سأله عن جملة "زيد أفضل إخوته" أو "زيد أفضل الإخوة" أيهما أصح؟ وهذه الأمثلة كان المقصود منها إفحام الخصم، وإظهار عدم معرفته باللغة العربية. ولذلك فهي لا تسعفنا في الموضوع الذي نحن بصدده، موضوع التعارض الذي أقامه السيرافي ما بين المنطق اليوناني والنحو العربي. سيكون علينا إذن أن نتولى الأمر بأنفسنا.

لنفرض أن هناك تعارضا ما بين المنطق اليوناني والنحو العربي، أو أن أحدهما لا يحتاج للآخر، فما هي أهمية هذا بالنسبة لموضوعنا؟ أهميته بالنسبة لي كباحث إيبستيمولوجي، في الثقافة العربية، أهمية كبرى! ذلك لأنه إذا انطلقنا من فرضية أن النحو العربي هو، بشكل من الأشكال، منطق اللغة العربية، فهذا سيفسر لنا، ولو بكيفية جزئية، كثيرا من الخلافات الفلسفية والميتافيزيقية والكلامية التي كان مصدرها توافد أفكار ومنظومات فكرية أجنبية إلى اللغة العربية. فإذا اعتبرنا أن الفكر العربي هو عبارة عن بنية، واعتبرنا الفكر اليوناني أو الفكر الفارسي أو أي فكر أجنبي عبارة عن بنية أخرى مخالفة، واعتبرنا كذلك كون الفكر العربي محكوما بمنطق لغته، فسيكون رفض الثقافة العربية لبعض الأفكار الوافدة راجعا في جزء منه على الأقل، إلى تحكم النحو، أي إلى منطق اللغة. وهذا يلقي أضواء كثيرة على بعض الخصومات الكلامية. فمثلا عندما نقرأ النصوص القديمة في علم الكلام نلاحظ فعلا هذا التعارض: الأفكار والمفاهيم ترفض من طرف المتكلمين المسلمين لماذا؟ لأن اللغة العربية تقول شيئا آخر، لأن هذا المفهوم في اللغة العربية له مدلول آخر. إذن هنا يتحكم النحو العربي في الذهنية العربية، لا بوصفه قواعد نحو بل بوصفه بنية، بمعنى أن النحو العربي من هذه الناحية يرتفع من مستوى قواعد للغة إلى مستوى قانون للفكر.

إذا أخذنا بهذه الفكرة وبهذا التعارض، أمكننا الذهاب إلى أبعد. فإذا افترضنا (وهذا شيء يقول به كثير من الباحثين المعاصرين) أن أرسطو أخذ منطقه أصلا من اللغة اليونانية، وافترضنا أيضا أن النحو العربي منطق أخذ من اللغة العربية، إذا افترضنا هذا وذلك ونقلنا هذين الافتراضين من المستوى اللغوي إلى

المستوى الميتافيزيقي، سيحصل لدينا ما يلي: الخلفية الميتافيزيقية للنحو اليوناني ستكون شيئا، والخلفية الميتافيزيقية للنحو العربي ستكون شيئا آخر.

فإذا نظرنا إلى القضية من هذا المنظور، يمكن أن نخرج بجملة من النتائج: مثلا نلاحظ أن اللغة اليونانية واللغات الآرية أو الهندو/أوروبية بالخصوص، تنطلق دائما من المبتدأ، من الاسم! بعد ذلك تأتي المحمولات. هذا يعني أن هناك شيئا نفترضه موجودا هو المنطلق، ثم نحكم عليه جملة أحكام، في الزمان، في المكان، في حال معين، في كيف معين... إذن هناك دائما افتراض لشيء موجود قبل الحوادث أي قبل التغير. فعلا، في الفكر اليوناني نجد هذا الشيء عندهم هو الموجود الأول. ففي الفلسفة اليونانية كما في الميثولوجيا اليونانية، نجد الانطلاق دائما من شيء موجود، من "الموجود" L'être. في الميثولوجيا- اليونانية في أول الأمر كان الكاوس Chaos العماء المظلم الذي سيتبعض ويتجزأ ويتمفصل فيما بعد ليصير أرضا وسماء وبحرا الخ. وعندما انتقل هذا التصور من الميثوس Mytos إلى اللوغوس Logos (من عالم الأسطورة إلى عالم العقل) سيصبح "الواحد" عند بارميندس أو "الهيولي الأولى" عند أفلاطون أو المادة الأولى أو "الإيبيرون" قبلهما... هو الموجود الأول. هناك دائما شيء أساسي معطى موجود وعليه تحمل الموجودات الأخرى، حتى الآلهة في الميثولوجيا اليونانية هي آخر ما يصنع أو آخر ما يوجد، توجد الأرض والسماء والكواكب وبعد ذلك تخلق الآلهة التي لها طبيعة بشرية، وليست لها الأولوية الأنطولوجية، كـ "الكائن"، أي ما يقابل الاسم في الجملة اليونانية.

أما بالنسبة للجملة العربية فهي تبتدئ دائما بالفعل، والباقي ليس أحكاما على الفعل وإنما هو بيان للفعل، بيان لمن وقع عليه، لمن قام به، للكيفية التي قام به... وإذن فالمعطى الأول هنا هو الفعل، والباقي هو امتدادات أو تعديات لهذا الفعل. من هنا يمكن أن نربط الجملة العربية التي تبتدئ بالفعل بأول جملة في الديانات السماوية. ففي التوراة : "في البدء خلق الله السموات والأرض". والخلق **كلمة** الله: إذا أراد شيئا يقول له **كن** فيكون. و"كن" فعل، أي في البدء كان هناك فعل الله. من هنا أولوية الخلق كمعطى أول في الفكر اللاهوتي، بل في الديانات السامية كلها، المعطى الأول هو الفعل، الخلق، أي في البدء كانت كلمة "كن"، كان "الأمر الإلهي". "يسألونك عن الروح، قل الروح من **أمر** ربي": **أَمَرها** أن تكون فكانت. **الأمر** أي الفعل هو الشيء الأول. واضح إذن أن هناك تعارضا على الصعيدين الميتافيزيقي واللغوي بين اللغتين اليونانية والعربية، وبالتالي بين منطق هذه اللغة ومنطق تلك، بين الخلفيات الميتافيزيقية لهذه اللغة والخلفيات الميتافيزيقية لتلك.

قد تقول: وما فائدة هذا كله؟ وأجيب: فائدته هو أننا يمكن أن نفهم على ضوئه —على ضوء هذا التصور– كثيرا من الخلافات التي شهدها الفكر العربي في علم الكلام وفي الفلسفة وحتى في ميادين أخرى. فابن تيمية مثلا يرفض تماما "الإيبستيمي" اليوناني (أي ما هو بمثابة البساط المعرفي للعقل اليوناني)، وكان واعيا تمام الوعي بأن اللغة العربية، وثقافتها وميتافيزيقاها شيء، والباقي شيء آخر. وابن رشد نفسه وعى هذا عندما نادى بالفصل ما بين الدين والفلسفة، وبالتالي ما بين بناء معين يخضع لقوانين معينة وبين

بناء آخر. فابن رشد يؤاخذ على المشرقيين كونهم أدمجوا أو أرادوا أن يدمجوا الفلسفة بالدين، وهما عنده بناءان مختلفان متمايزان. هو يرى أن القرآن، والشرع، يجب أن يفسر داخل دائرته، بأساليب اللغة العربية المعروفة، ولا يجب أن ننقل إليه شيئا آخر من الخارج، لأنه إذا نقلنا إليه أفكارا أخرى أو تأويلات أخرى فإننا سنصطدم بعقبات. من هنا كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"، وهو محاولة استخراج منطق النص الديني العربي من هذا النص نفسه. هو يرد فيه على الأشاعرة، ويقول لهم إن الأسلوب الذي أتبعتموه في تبرير العقائد الإسلامية أسلوب فاسد لأنكم تبنيتم منطقا آخر ومفاهيم أخرى، غير المنطق العربي والمفاهيم الإسلامية. هو يقترح منهجا خاصا مستنبطا من اللغة نفسها، من الآيات نفسها، حتى يبقى البناء الديني الفكري منسجما مع نفسه.

طبعا، عندما يتحدث ابن رشد عن أرسطو والفلسفة اليونانية فهو يقطع الصلة تماما مع العالم العربي الفكري والديني، بل يقرأ أرسطو داخل الفكر اليوناني، يقرأ أرسطو بأرسطو نفسه. إذن هناك مفكرون عرب أصلا، مثل ابن رشد وابن تيمية، كانوا واعين تمام الوعي لهذا الاختلاف في البنية الفكرية وبالتالي في البنية اللغوية، بين الثقافتين. المهم بالنسبة إلينا هو أن نحاول الاستعانة بمثل هذه التحليلات وبمثل هذه الرؤية على فهم جوانب كثيرة من تراثنا.

4- اللغة العربية تفرض عليك أن تفهم قبل أن تقرأ.

س- هذا الكلام يقودنا إلى سؤال آخر: إذا كانت الجملة في اللغة العربية تختلف عنها في اللغة اليونانية من حيث الرتبة والعامل وما يترتب عن هذا الاختلاف من الناحية الفكرية الميتافيزيقية فهل

توضح لنا كيف أن العربية تحمل معها منطقها الخاص الذي يتجسد في النحو؟

ج- هذا شيء معروف. يقال دائما إن اللغة العربية هي اللغة التي تفرض عليك أن تفكر قبل أن تقرأ. إذا كان لديك نص غير مشكول (وقديما كان غير منقوط)، فقبل أن تقرأ يجب أن تفكر، أي قبل أن تقرأ قراءة سليمة يجب أن تفهم فهما سليما. وهذا بخلاف اللغات الأخرى التي يمكن أن تقرأ فيها قراءة سليمة دون أن تفهم. وهكذا فبينما نجد القراءة هي وسيلة للفهم في اللغات الأجنبية، نجد، بالنسبة للغة العربية، أن الفهم هو وسيلة للقراءة السليمة. يجب أن تعرف الفاعل والمفعول به، والمبتدأ والخبر، والحال والتمييز، لكي تستطيع أن تتكلم كلاما صحيحا من الوجهة النحوية، إذن يجب أن تفهم قبل أن تتكلم، أن تمارس المنطق قبل أن تمارس اللغة! وهذا شيء بطبيعة الحال يقتضي منا أن نعترف بأن النحو العربي لا يعلمنا كيف نتكلم فحسب، بل يعلمنا أيضا كيف نفكر، هذا على مستوى القواعد.

لنأخذ مثالا آخر على مستوى الأوزان. لقد حصر اللغويون والنحاة الذين مارسوا ما يسمى بعلم الصرف اللغة العربية في أوزان معينة، أوزان الفعل، أوزان الاسم؛ ولكل وزن معنى خاص. فمثلا صيغة فاعل تدلك على من قام بالفعل. لنفرض أن كلمة "لزص" — التي لا نعرف معناها- وهي كلمة لا تستسيغها الأذن العربية، ويمكن قراءتها بصيغة الفعل (على وزن ضرب مثلا)، فإننا نستطيع أن نصوغ منها اسم الفاعل هكذا "لازص". فإذا سمعنا هذه الصيغة فهمنا منها جزءا من المعنى، وهو أن شخصا قام بعمل. نحن نعرف هذا قبل أن نعرف معنى الفعل. وإذا صغنا تلك الكلمة بصيغة

المفعول فسنعرف كذلك أن الأمر يتعلق برجل أو شيء وقع عليه ذلك الفعل الذي لا نعرف معناه. وإذا سمعنا كلمة "لزّاص" فهمنا أنه كثير "اللزص". فكيف نتحدث عن كثرة أو قلة "اللزص" وهو في حكم المعدوم عندنا، لأننا لا نعرف له معنى.

نعم يمكن أن يقال إن في جميع اللغات صيغ تفيد معان معينة. هذا صحيح، ولكن ما تختص به اللغة العربية هو أن جميع كلماتها قد أدرجت في صيغ. وقد ترسخت هذه الآلية حتى صار من الممكن أن تصوغ مشتقات تقبلها اللغة ولو أنها غير ذات أصل فيها. قد يقال إن هذه ميزة، وأنها دليل على خصوبة اللغة العربية. ليكن ذلك، وفي هذا الكلام شيء من الصحة بدون شك، ولكن لسنا هنا بصدد إصدار أحكام قيمة، نحن نريد أن نفهم واقعا لغويا كما هو، لا غير، واقعا رسخ في الذهنية العربية قوالب معينة: قوالب المفعولية، قوالب الفاعلية، قوالب الظرفية الخ. فحين نسمع لفظا له صيغة خاصة، نفهم أنه يتعلق الأمر بزمان أو مكان، أو بالحال، أو بالتمييز الخ. هناك أوزان، كأسماء تدل على معنى. هناك أيضا في ميدان الأفعال أوزان تدلك عن معنى الفعل دون أن يكون لك سابق معرفة بمعنى المادة اللغوية. فمثلا "افتعل" فيها معنى الاصطناع والكذب، "تفاعل" فيها معنى التداخل والمشاركة الخ. دائما هناك صيغة في الفعل تدل على شيء من المعنى، هذا المعنى أو هذا الجزء من المعنى الذي تدل عليه هذه الصيغ والأوزان في الأفعال أو الأسماء لا يتعلق بالمادة اللغوية، ليس مصدره المادة اللغوية، لأننا نفترض أنك تجهل معنى "ضرب" ولكنك تعرف شيئا من معنى "ضارب" و"مضروب" الخ، فمن أين جاء هذا المعنى؟

ما دمنا لا نعرف المعنى الأصلي للمادة، فلمن ننسب هذا الجزء من المعنى الذي تعطينا إياه الصيغ والأوزان النحوية الصرفية؟ هل ننسبه إلى المادة اللغوية؟ هل ننسبه للواقع؟ هل يعكس واقعا معينا؟ لا، لم يأت من الواقع، لم يأت من الحس، لم يأت من المادة اللغوية، إذن هو قالب فكري، هو منطق. ومن يعرف تصور "كانط" للمقولات قد يفهم معنى القوالب التي من هذا النوع، لأن معنى الفاعلية والمفعولية لا وجود له في الواقع، إنما نفهمه نحن من هذه الصيغ. فإذا كانت أوزان اللغة العربية النحوية والصرفية، لها معنى منطقي، لا يمكن للقارئ العربي أن يفهم من صيغة الفاعل شيئا آخر إلا أنه فاعل، فالنحو يحمل معه منطقه، نوعا من المنطق الخاص به. وهذا هو ما نريد بيانه وتأكيده.

جريدة المحرر المغربية – 24 مايو 1981